كلمة التحرير

نداء من أجل العربية

أحمد الريسوني*

اللغة والدين هما المحددان الأساسيان لهوية أية أمة من الأمم وانتماءاتها على مر التاريخ. ويزداد هذان المحددان قوة في ذلك، إذا التحما في بوتقة واحدة، بحيث تكون اللغة القومية لجماعة بشرية ما، هي نفسها لغتها الدينية.

ورغم المحاولات الحديثة والحثيثة، لإعادة تشكيل الأمم والشعوب وانتماءاتها والانتماء إليها، على أسس جغرافية وسياسية وقانونية، فإن ذلك لم يلغِ ولم يضعف قوة الانتماء الديني والانتماء اللغوي. فما زال الولاء القومي واللغوي، والانتماء الديني، يعلوان فوق الانتماء الوطني السياسي، في حالة ما إذا كانا مختلفين.

وتشكل اللغة الأمّ، لغةُ التنشئة والتعامل، حضنا وغذاء نفسياً وعاطفيا لشخصية الإنسان. فالمفهوم الأولي والبسيط، السائد عن وظيفة اللغة، بأنها أداة للتواصل والتفاهم بين الناس فحسب، هو جزء من الحقيقة، وليس كل الحقيقة. ووصف اللغة بعبارة (اللغة الأم)، هو التعبير الحقيقي الصادق عن دور اللغة ووظائفها. فاللغة (الأم)، تعني أن للغة وظائف كوظائف الأم. وهذا التعبير بمعناه المذكور، يعفيني من إطالة الشرح والبيان لما تضطلع به (اللغة الأم)، من وظائف وخدمات نفسية وعاطفية وتربوية وتثقيفية وتواصلية، مع المحيط القريب والبعيد. بل حتى هذه الوظيفة التواصلية للغة، فإنها ليست بالمحدودية التي تتبادر إلى الأذهان، وهي التخاطب والتواصل بين الناس المتعاصرين، بل هي، فوق ذلك، أداة للتفاهم والتواصل بين العصور والأجيال، مع ما ينشأ عن ذلك من ارتباط عاطفي، لا تختلف طبيعته عن ارتباط الشخص بأقاربه وأصدقائه ومعاصريه.

ولحكمةٍ ما، أرادها الله تعالى، كانت المسألة اللغوية حاضرة منذ اللحظة الأولى لخلق الإنسان، فقد كان أول تعليم رباني تلقّاه الجنس البشري، هو اللغة والبيان، حتى قبل أن يتعلم آدم كسب قوته، أو عبادة ربه، أو ستر عورته. ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا.﴾ (البقرة:31) ﴿الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ.﴾ (الرحمن:1-4) وأقل درس يستفاد من هذا، هو أن لِلُّغة وظيفة أساسية وعاجلة في حياة الإنسان.

وإذا كانت كل لغة، وهي إناءٌ، ترشح بما فيها، على مَن حولها ومن تعامل معها، فإن الاحتكاك، أو الاندماج، مع أي لغة من اللغات، ولا سيّما في مرحلة النشأة الأولى، يُفيض على الشخص ويبث في روعه ونفسه، من تاريخ تلك اللغة وأدبها وثقافتها وقيمها وذكرياتها.

---

* خبير في مجمع الفقه الإسلامي الدولي، وعضو هيئة تحرير مجلة إسلامية المعرفة، raissouni@maktoob.com

فالانتماء اللغوي/الثقافي للأشخاص وللمجموعات البشرية، يتجاوز في تأثيره حتى الانتماء العرقي نفسه؛ ولذلك نجد اليوم شعوباً إسلامية كبيرة قد انتمت إلى العروبة بسبب اندماجها في لغة العرب، مع أنها ذات انتماءات قومية ليس لها أي أصل عرقي عربي. وقد جاء في الأثر: "يا أيها الناس إن الربَّ ربٌّ واحد، وإن الأبَ أبٌ واحد، وإن الدين دين واحد، وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم، وإنما هي اللسان، فمن تكلم بالعربية فهو عربي." (الجامع الكبير للسيوطي 26740/1). وبهذا المعنى اندمج في عروبة اللسان أضعافُ عرب الأنساب. ومن المعلوم أن عرب اللسان هم أكثر مَن خدموا العربية وأكثر من دافعوا عنها. وبهذا أيضا تخلصت اللغة العربية من أي صفة عرقية أو عنصرية. فاللغة العربية ليست لغة خاصة بعرب النسب، ولكنها لغة من تكلم بها واندمج فيها. فمن فعل هذا فهو العربي، أيّاً كان نسبه وسلالته.

كما أن (اللغة الأم) تشكل وسيلة لا بديل عنها، لأي إبداع، أدبي أو علمي، مستقل ومتميز. ودونها لا تكون إلا التبعية والذيلية والهامشية. فليس هناك أمة أبدعت وتميزت، حضاريا أو علميا أو أدبيا، بغير لغتها القومية الراسخة فيها. وها هي التجربة اليابانية، على سبيل المثال، حية وقريبة؛ إذ كان الاعتماد الأساسي والكبير للنهضة اليابانية، على اللغة القومية، وليس على اللغة الإنجليزية، كما يظن الكثيرون. وإلى الآن، فإن الشعب الياباني يُعدُّ متأخراً في سلم المعرفة باللغة الإنجليزية، ضمن شعوب العالم. فقد جاء اليابانيون في المرتبة الثامنة عشرة في امتحاناتٍ خاصة باللغة الإنجليزية، أجريت على الصعيد الآسيوي. ولو كان الامتحان على الصعيد العالمي لتدحرج ترتيبهم إلى الوراء أكثر، ولسبقهم كثير من العرب!

على أن لِلُّغةِ العربية خاصيةً أخرى لا تخفى أهميتها وخطورتها عند العرب والمسلمين، وهي كونها لغة الإسلام، أي لغة القرآن والسنة، وهي أيضا اللغة الأولى للعلوم الشرعية والثقافة الإسلامية. وهذا ما يجعلها لغة مشَرَّفة ومحبوبة ومطلوبة، عند مئات الملايين من المسلمين من غير العرب.

ولكن هذه الخصائص والوظائف الكبيرة والخطيرة، سواء التي تشترك فيها اللغة العربية مع غيرها من اللغات العالمية، أو التي تتفرد بها دون سائر اللغات، قد أصبحت كلها مضعضعة أو مهملة أو مهددة.

لقد أصبح الكثيرون من النخب العربية، ومن المسؤولين العرب، يجيدون ويمجدون اللغات الأجنبية، أكثر بكثير مما يفعلونه مع لغتهم، حتى إن بعض المنظمات التابعة للأمم المتحدة قد بدأت تتداول قرار حذف اللغة العربية من اللغات الرسمية المعتمدة لديها، وذلك لسببين :

الأول: هو أن ممثلي الدول العربية أنفسهم لا يستعملون لغتهم العربية داخل هذه المنظمات، حرصا منهم على إظهار معرفتهم باللغة الأجنبية.

والثاني: هو أن الدول العربية غير ملتزمة بتعهداتها المالية والبشرية، في دعم متطلبات استعمال العربية في أجهزة الأمم المتحدة وفروعها.

على أن هذا التفريط الرسمي العربي في اللغة القومية الرسمية، على صعيد الأمم المتحدة، وعلى الصعيد الدولي بصفة عامة، ليس إلا فرعاً ونتيجة للتفريط الأصلي على الصعيد الداخلي. ففي مجمل الدول العربية، نستطيع أن نستنتج بيسر ووضوح، عدم وجود أي رغبة جديّة، ولا أي سياسة حقيقية، لتقوية اللغة العربية وتعزيز مكانتها الداخلية والخارجية. وفي كثير من هذه الدول لا يستطيع الملاحظ أن يستنتج أن اللغة العربية هي اللغة (الرسمية) للبلد! فاللغات الأجنبية تواصل اكتساحها واحتلالها لمواقع السيادة والريادة، على الخريطة العربية، في مجالات التعليم والإعلام، والإدارات والمعاملات الحكومية، والمرافق الاقتصادية والتجارية والخدماتية. وهي في ذلك معززة بجهود ومخططات ومؤسسات وتمويلات. وهكذا تستولي اللغة الإنجليزية على المشرق العربي، وتستولي اللغة الفرنسية على المغرب العربي.

وبجانب الاكتساح اللغوي الأجنبي ومؤسساته التعليمية وغيرها، بدأ يستفحل استعمال العامية في الإعلام والتعليم كذلك، ففي الثانويات، ولا نتحدث عما دونها، وكذلك في الجامعات، وحتى في أقسام الدراسات العليا، يتزايد استعمال الطلبة والأساتذة لِلَهَجاتهم العامية، أو لخليط بين الفصحى والعامية. وأما في الإعلام، وخاصة الإعلام المرئي منه ، فالأمر أسوأ وأفدح. ومن أمثلته القريبة: البرنامج الذي كان يقدمه صحفي عربي كبير وكاتب قومي شهير، على أكثر القنوات التلفازية العربية شهرة، وكان حريصا ألا يتحدث فيه إلا بعامية كاملة، كأنما يتحدث إلى أصدقائه وأقاربه في المدينة التي جاء منها! مع أن في ذلك خسارة إعلامية كبيرة للمتحدث وللقناة ذات الطابع العربي الدولي.

وقد بدأنا نرى دعاة ومحاضرين مشاهير، يخاطبون في دروسهم ومحاضراتهم جمهورا عربيا متنوع الأوطان واللهجات، ولكنهم، مع ذلك، يظلون غارقين في عاميتهم المحلية الخاصة، مما يجعل كثيرا من الناس ينصرفون عنهم، أو يصبرون عليهم، على مضض، ولسان حالهم يقول: ﴿مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ.﴾ (هود:91).

وفي هذا السياق أيضا انبعثت، بعد فشل قديم، دعوات متحمسة ومبادرات فعلية، لمحاولة ترسيم اللهجات العامية واتخاذها بدائل عن الفصحى. وهكذا ظهرت في المغرب العربي، على سبيل المثال، صحف وإذاعات وقنوات، مكتوبة وناطقة بالعامية. ولحسن الحظ، فإن أصحابها يشتكون من إعراض الجمهور عنهم واستهجانه لعملهم. ذلك أن عامة الناس، بمن فيهم الأميون وأشباه الأميين، يفضلون لغة فصيحة ميسرة، على العامية المغرقة في محليتها وخصوصيتها وقلة جدواها. فهم يريدون خطاباً يرتقي بهم لا خطاباً يحط من شأنهم.

وهناك خطر آخر يتهدد العربية والعروبة في عقر دارها، وفي بيت آبائها وأجدادها. ويتعلق، بصفة خاصة، بالدول والمجتمعات العربية، التي تحتضن وتستقبل الملايين من الوافدين والمقيمين غير العرب، تفوق أعدادهم أحيانا عدد السكان من أهل البلد. فهذا الوضع يشكل وينتج عملية تعجيم لغوي، عفوي وهادئ، لهذه المجتمعات؛ عملية التعجيم هذه تتمثل في استعمالات مشوهة وغريبة للتعبيرات والألفاظ العربية وغير العربية، هي آخذة في الزيادة والشيوع. كما تتمثل في الاختفاء الكامل أو شبه الكامل للتعامل باللغة العربية، بما فيها العامية المحلية، من عدد من المرافق الإدارية والاقتصادية والصحية والسياحية، وحلول اللغات الأجنبية محلها.

يقع هذا في الوقت الذي تتيح هذه الحالة، حالةُ وجود ملايين المقيمين من غير العرب في المجتمعات العربية، فرصة تاريخية نادرة لتعليمهم اللغة العربية بكثير من اليسر والطواعية، ليصبحوا بها رسل العربية إلى أهليهم وبلدانهم، فإذا بالعكس هو الذي يقع! فأما اليسر والطواعية في تعليم هؤلاء العربية، فلِكَوْنِهِم، أولاً، في معظمهم مسلمين؛ وعامة المسلمين يحبون تعلم العربية، وسيكونون فخورين بتحقيق هذا المكسب إذا أتيح لهم في البلدان العربية التي يقضون فيها سنين طويلة؛ وثانياً، لأن في ذلك مصلحتهم المهنية، خاصة لو أصبح العمل والإقامة، أو تجديد الإقامة، أو الترقية في العمل، مشروطاً بمعرفة حد أدنى من اللغة العربية، لغة البلد المضيف والمشغِّل. وهذا ما تفعله الآن عدة دول أوروبية وغير أوروبية.

على أن هناك فرصة أخرى لا يتم التجاوب معها واستثمارها، لخدمة اللغة العربية وتعزيز مكانتها العالمية، وهي الإقبال العالمي المتزايد على تعلم العربية من غير العرب، سواء لأسباب دينية ثقافية، كما هو شأن أبناء الشعوب الإسلامية، من أتراك وباكستانيين وماليزيين وإندونيسيين وغيرهم. أو لأسباب تجارية، كما هو شأن الصينيين واليابانيين وغيرهم. أو لأجل مهام سياسية ودبلوماسية واستخباراتية، كما هو شأن الأوروبيين والأمريكيين وغيرهم. وكل هؤلاء لا يجدون ما يلائمهم، وما يكفي لتلبية احتياجاتهم، من مؤسسات وبرامج وأدوات لتعليم العربية.

ولقد رأيت العشرات من الطلبة الآسيويين في الدراسات الإسلامية بالمغرب، حريصين كل الحرص على تحصيل الدراسات الشرعية التي جاؤوا من أجلها، ولكن ضعفهم الشديد في اللغة العربية كان عائقا كبيرا أمامهم. ولم يكن عند جامعتنا ولا عند غيرها، برنامج رسمي وإلزامي، لتمكين هؤلاء من اللغة العربية، لغة تخصصهم الدراسي. وأذكر طالبة كورية حاصلة على الإجازة في الدراسات الإسلامية من بلد عربي، بقيت تكرر عندنا خمس سنين في السنة الأولى من الدراسات العليا ولم تنجح، لضعف قدرتها التعبيرية باللغة العربية. فكانت لا تستطيع أن تقدم إجابات مفهومة وصحيحة!

إن المسألة اللغوية عموماً، ومسألة اللغة العربية تحديداً، تستدعي وتستحق جهوداً أكبر بكثير مما تأخذه الآن. ولا أراني مبالغا إذا قلت إن قضية اللغة العربية تحتاج إلى صحوة وحركة، على غرار الحركة الإسلامية والصحوة الإسلامية. فهل نطمح إلى أن نشهد انتفاضة لغوية عربية تبشر بمستقبل قريب للعربية في عصر العولمة؟!

نحن نجد، والحمد لله، ردود فعل إيجابية، مقدرة ومشكورة، في الدفاع عن الإسلام ونبي الإسلام، وعن القرآن والسنة، وعن القضايا الإسلامية والقضايا القومية، وعن الشعوب العربية والإسلامية... ونجد في ذلك الكثير من الحركات والتحركات، والمنظمات والجمعيات، والمبادرات والتبرعات... ولكن اللغة العربية لا بواكي لها! وهي مفتاح ديننا، ووعاء تراثنا، وهي ضامن هويتنا واستقلاليتنا الثقافية، وهي وسيلة وحدتنا ونهضتنا!

إن قضية اللغة العربية يجب أن ترفع إلى مرتبة القضايا الكبرى للأمة، قضايا الوجود، والسياسة والتخطيط (الاستراتيجي) للحاضر والمستقبل. ويجب أن تُعدُّ قضية حكومات وشعوب، لا قضية مهتمين ومتخصصين. نحن نرى أن مجامع اللغة العربية، على جهودها وعطاءاتها الجليلة، تجد نفسها عاجزة ومشلولة أمام الواقع المتدهور لهذه اللغة؛ ذلك أنها دون أنصار، ودون تجاوب رسمي، ولا سند شعبي، ولا يكاد يعلم بقضيتها أحد!

إن تحريك هذه القضية والانطلاق بها في مسارها ونحو أهدافها، يحتاج إلى عمل دائب، في حلقات متداخلة متكاملة: مبادرات وجهود شعبية ونخبوية، وتحريك المجامع والمؤسسات المختصة والمتخصصة، والضغط لإيجاد سياسات ومبادرات رسمية متجاوبة، وإشراك وسائل الإعلام وتفعيل دورها في القضية، ثم تستمر الدورة على هذا النحو.

وفما يلي بعض الاقتراحات العملية التي يمكن إنجازها، كما يمكن تطويرها أو الزيادة عليها.

1. تأسيس جمعيات ولجان ومراكز لخدمة اللغة العربية والدفاع عنها والتصدي لمن يسيئون إليها وإلى مكانتها.
2. تأسيس جمعيات ومراكز ولجان لتعليم العربية لغير العرب، وخاصة المسلمين المقيمين في البلدان العربية.
3. العمل على دعم مجامع اللغة العربية والمؤسسات المتخصصة، وتفعيل دورها ورسالتها، فالمجامع في كل قطر، واتحاد المجامع، والمنظمات الإقليمية العربية مثل الألكسو، والإسلامية مثل الإيسيسكو...كلها تشكو من عدم قدرتها على تلبية الطموحات العزيزة المعلقة عليها.
4. تفعيل دور الأسرة والمؤسسات التعليمية في العناية بالعربية الفصحى والتحدث بها. وثمة تجارب رائدة في بعض الأقطار العربية أعطت نتائج باهرة في التنشئة على التحدث الفعلي للأطفال باللغة العربية الفصحى، يمكن إبرازها وتبادل خبراتها وتعميم فائدتها.
5. إنشاء مواقع إلكترونية متخصصة في موضوع اللغة العربية، وتخصيص حيز لهذا الموضوع في المواقع العامة، وإنتاج برامج إلكترونية لتعليم العربية وتقويتها في مختلف المستويات.
6. إحداث برامج تلفزيونية وإذاعية مخصصة لخدمة العربية.
7. إحداث جوائز قيمة لتشجيع الأفراد والمؤسسات على خدمة العربية والارتقاء بها.
8. اتخاذ يوم عالمي سنوي للغة العربية. ولو جاءت هذه المبادرة من جامعة الدول العربية، ومنظمة الأليكسو، التابعة لها، أو منظمة المؤتمر الإسلامي، ومنظمة الإيسسكو المرتبطة بها، لكان أنسب.